إنسان الفكر والحركية

إنسان الفكر والحركية هو رجل الانطلاقة والحملة الحركي المخطط الذي يقوم ويقعد على خفقان شد العالم بالنظام مجدداً، ويمثل حركة إقامة صرح الروح والمعنى من جديد بعدما آل إلى السقوط ومنذ عصور، ويُفسر قيمنا التاريخية كرة أخرى، ويستخدم بمهارة مكوك الإرادة والمنطق في الفكر والحركة، وينقش على قماش روحنا ومعنانا زخارف مستظرفة وجديرة تناسبنا.

فهو في خط الحياة الممتد على مدى فصولها من الحس إلى الفكر، ثم إلى الحياة العملية، يتنفس النظام دوماً، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبداً. إنه وليّ الحق اللدني الذي يُعدّ "قادة أركان" الروح ومهندسي العقل وعمال الفكر، بدلاً عن استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش، وينفخ بلا كلل نَفَس البناء والإعمار فيمن حوله، ويرشد أعوانه إلى سبل عمران الخرائب. وليٌّ للحق جياش بالشوق والشكر، استطاع أن يوحد إرادته مع المشيئة المطلقة، وأن يحول فقره إلى الغنى، وعجزه إلى القدرة عينها. إنه لا يقهر أبداً ما دام يستخدم مصادر قوته هذه كما ينبغي وبحس الإخلاص والوفاء لصاحبها. وحتى حين الظن بأنه قد هُزم، فستجده على رأس فوج آخر للنصر والظفر.

وقد تجد إنسان الفكر والحركية ابناً باراً للوطن، أو إنساناً حركيا ذا بُعد فكري، أو رجلاً متفانيا في العلم، أو فناناً مبدعاً داهية، أو رجل دولة، أو رجلاً يجمع كل هؤلاء فيه. وفي العصر الأخير ظهر كثير من رجال الفكر والحركية يمثلون قسماً من هذه الصفات. فمنهم من سبق فكره عمله

الحركي، ومنهم من تبارى فكره مع عمله الحركي، ومنهم رجال حركة فكرهم مكنون ومخزون.

رجال في استقامة مديدة يشعون ضياء، منهم أحمد حلمي فيليبه لي، ومصطفى صبري، وفريد قام، ومحمد حمدي يازر، وبديع الزمان سعيد النورسي، وسليمان أفندي، ومحمد عاكف، ونجيب فاضل. ولا يسع المقام هنا حتى لذكر تواريخ الولادة والوفاة لهذه الكثرة من الأسماء المباركة. لذلك نمر سراعاً بعناوين نفرٍ من أبطال الحقيقة أولئك، حتى لا نتجاوز أغراض المقال:

أحمد حلمي فيليبه لي: ولد في مدينة فيليبة ببلغاريا. كان أبوه سفيراً. بدأ التعرف على المعارف وعلى العصر بالدراسة في "سلطانية غلاطة سراي". ثم أقام في إزمير وتوظف في بيروت. وهنا اتصل بعناصر "تركيا الفتاة" فتبعه النفي والإبعاد إلى "فيزان". ثم دعي إلى إستانبول بعد "المشروطية" (الدستور). فرفع راية فكر "الاتحاد الإسلامي"، وإصدر مجلة بهذا الاسم لنشر أفكار هذه الجمعية... وبعد ذلك جريدة "الحكمة" اليومية والتصدي لجمعية "الاتحاد والترقي"، ثم مجلات وجرائد أخرى... والقيام مدة بوظيفة أستاذ الفلسفة في دار الفنون (الجامعة). ثم قتل بالسم في عمر يحسب على الشباب من قبل أعدائه الألداء الماسونيين بالظن الغالب.

إن الآثار والكتابات التي تركها رجل الفكر والحركة الذي ألقينا على حياته نظرة سريعة، لا زالت تنتظر دراساتٍ أكاديمية.

فريد قام: السيرة الوجيزة لرجل الفكر والذوق والبيان الفريد النادر الذي فتح عينه على الحياة العرفانية لاستانبول، كما يأتي:

أستاذ الفرنسية، والاستطلاع الفلسفي الذي أوقعه في قلق لمدة قصيرة، ثم اللجوء إلى التصوف في أحضان العناية الإلهية، فالاستقامة في الحس والفكر مجدداً. وبعد ذلك نشر أحاسيسه في مجلتي "الصراط المستقيم" و"سبيل

الرشـــاد"... والقيام مدة بوظيفة مدرس في "دار الفنون" و "مدرســـة السليمانية"... والانتساب إلى "دار الحكمة الإسلامية" (هيئة من كبار علماء الإســـلام)... والتعرض مرات إلى العزل من الوظائف والإعادة إليها، وإلى البأساء والضراء والمضايقات، والدوام في مسيرة الحياة بزهاء ألوانها ذات البُعد العقبوي حتى لقاء ربه وكما يليق برجل فكر وعمل حركي. إن هذه الحياة المبجلة لن يسعها مجلد واحد فينبغي أن ينهض من يُعّرف الجيل الجديد بهذه الشخصية المثقفة في هذا العصر من جهة امتداده العميق في "الواردات"، وذلك اعتماداً على ما كتب وما نُقل عنه.

مصطفى صبري بك: إنه ابن الأناضول الطاهر هذا، هو "إنسان الكفاح" بكل معاني هذه الكلمة. فنجد "شيخ الإسلام" مصطفى صبري رجل الكفاح والحركية مدرساً وأمينا لمكتبة السراي ومبعوثا (نائباً في البرلمان) ورئيساً للتحرير في مجلة "بيان الحق"... وعضواً في فرقة (حزب) الحرية والائتلاف، إلى ساعة تركه الوطن بعد "مداهمة الباب العالي" المعروفة. لقد عمل رجل الحركة هذا في خدمة الإسلام في بلاد المسلمين الأخرى متى ما اشتدت العواصف، وعاد إلى وطنه لمواصلة الكفاح هنا متى ما سنحت الظروف... فيفتح صدره لخدمة بلده كلما سنحت له فرصة، فيتقلد عضوية "دار الحكمة الإسلامية" و "المشيخة الإسلامية". ثم يغادر تركيا سنة ١٩٢٢ لآخر مرة إلى رومانيا وإسكجه، ثم مصر... حتى انقضاء عمره سنة ١٩٥٤... حياة أمضاها في كفاح مرير ومكافحة شديدة... حياة مباركة لأبن بار للوطن مشحونة بعذاب ثقيل ومتقلبة بين الصعود والنـــزول، تصلح موضوعا للعديد من رسالات الدكتوراه.

أحمد نَعيم بَابَان زَادَه: ولد في بغداد. أبوه باشا عثماني. نهل من معارف إستانبول مثل أقرانه. من مراحل سيرة هذا الإنسان الأفق، الغني والواسع في عالمه الحسي والفكري: مدرسة "سلطانية" غلاطة سراي، مدرســـة المُلْكِية

(الإدارة والسياسة)، فالتعيين في قلم الترجمة في وزارة الخارجية ومدير التدريسات في وزارة المعارف وعضوية دائرة الترجمة وتدريس الأدب في دار الفنون وعمادة كلية لمدة وجيزة...

إن أحمد نعيم نبع مهم ارتشف منه المجتمع التركي فكراً وروحاً... وترك من خلفه ميراثاً غزيراً من العلم والعرفان للأجيال القادمة.

محمد عاكف: الابن البار والمخلص لهذا الوطن غني عن أي تعريف. كُتِبَت عنه المجلدات من الأبحاث وتحدث عنه الخطباء. وسيكتب ويقال بلا انقطاع عن إيمانه وعشقه وفوران مشاعره وعمله الحركي وقضيته وفكره. هو من نوادر المثقفين الترك الذي ساحوا في الأناضول وروم ايلي (الممالك العثمانية في أوروبا) وبلاد العرب. وكان حيث ما حل صوتا لشعب مجيد، لكن منتكس المآل، مليء بالحسرة والهجران، ونَفَساً ينفث الأنين، وتوجساً مبثوثا فيما حولـــه. من قلائل الناس الذين حافظوا على خط توجهم بهذا الالتزام العظيم. كان مخلصاً ووفياً في مراحل حياته كلها: بيطاراً ومفتشاً ومدرساً للآداب في دار الفنون وباذلاً جهده في فريق "الصراط المستقيم" ثم "دار الحكمة الإسلامية"، ثم خطاباته في سنوات حرب الاستقلال.

عاش ابن الوطن ذو الصوت القوي، زاهداً كزهد صحابي جليل، ورحل إلى العقبى فقيراً. وهو ينتظر أيـــامـــا عابقة بالوفاء من الأكاديميين بالبحث والتمحيص عن جوانب فكره وعمله الحركي وفنه، مع حفظ الشكر للجهود المبذولة في هذا الشأن حتى الآن.

محمد حمدي يازِر: قامة مرفوعة معلومة للعالم. بعدما حصل على العلوم الابتدائية في "أمالي"، من نواحي الأناضول الصغيرة، توجه إلى العاصمة إستانبول "لإكمال النُسَخ" حسب المصطلحات في درجات العلم. تتلمذ على يد مشايخ بصورة خاصة، ثم "امتحان الرؤوس"، ثم "مدرسة النواب"، ثم مدرساً في "مدرسة الواعظين"... ومرتقياً إلى "الدرس العام". ثم مبعوثاً

(نائباً في البرلمان) على اثـــر المشروطية... والتوقيع على فتوى يجيز خلع الســـلطان عبـــد الحميد في خطأ اجتهادي... وعضويـــة دار الحكمة الإسلامية... ووزيراً للأوقاف... والوقوع تحت طغيان محاكم الاستقلال في العهد الجمهوري، والانـــزواء الطويـــل بعد النجاة من غضب هذه المحنة بفلتة أدق من الشعرة، ثم تصنيف ذاك التفسير الأشم. هذه خطوط عريضة منتقاة من سيرته.

إن العلامة حمدي يـــازر من الشخصيات البارزة التي ينبغي أن نتوقف عندها مليا باسم حياتنا الفكرية وعملنا الحركي.

نَجيب فاضِل: جذور عائلته في "مرعش" من حواضر الأناضول. لكنه وجيه مشبع بتربية إستانبول وآدابها، ولد فيها وعاش فيها حتى وفاته. الكلية الأمريكية والمدرسة البحرية كانتا ملء سندانتين من التراب ذي قوة إنباتية يحتضن هذه القابلية الفذة وكومتين صغيرتين للوثبة الذاتية. ومن المنازل التي نـــزلها ثم رحل عنها سريعاً: قسم الفلسفة في دار الفنون. وسوربون باريس منفذ صغير للاطلاع على الغرب. ولم يستسغ وظيفة مفتش في البنك فكأنه فيها بائع متجول، فغادرها. أول دارٍ نَفَخ فيها روح الفن في كل صدرٍ موهوب أو غير موهوب هي كونسرفاتوار الدولة (معهد موسيقى الدولة) وأكاديمية الفنون الجميلة. إنه صاحب المدرســـة الفكرية: "الشرق الكبير"، المسماة باسم الدورية التي أصدرها مرات، كلما منعت من الصدور أعاد إصدارها، وكلما صدرت أغلقت بالمنع عن النشر، بإرادة قوية تدفعه إلى المثابرة في التخطيط للصدور أثنـــاء المنع. فهو بانيها ومهندسها وصاحبها المثقل بالعذاب والبأساء والضراء... وهو أحد أفذاذ أساتذة الشعر والنثر ومهندسي الفكر المستقبلي في العصر الأخير. وإن غوصه في الفكر الصوفي، وعمقه في الميتافيزيقا، وتوقيره المتين في عمره كله للحقيقة المطلقة، واحترامه الفائق وتوقيره المكين إزاء سيد الأنام ﷺ، هي قطرات صغيرة من بحره الممتد

إلى الآفاق. وإن تعريف جيل الشباب التركي والعالم كله بهذا الإنسان العملاق وبتوجهاته كلها، والتي ألمحنا إلى بضع قطرات منها هنا، إنما هو مقياس قدراتنا على استشعار العظمة عند الآخرين. بل آمل من أهل التوقير أن يؤسسوا معهداً لدراسة نجيب فاضل.

سليمان أفندي: سليل عائلة أصيلة في سلسترة. شيخ وابن شيخ. عاد إلى بلدته التي ولد فيها "مدرساً" بسائق الوفاء الخالص بعدما أنضج غناه الروحي في آفاق عرفان استانبول. وتتوسم عائلته التي تعلق عليه آمالاً عظيمة خيراً في طلابه المتحلقين حوله، وفي إخلاص ووفاء أخلائه وإخوانه، فترى فيهم رسالته ومستقبله، وتبتسم لمن يلحق بهم من بعدهم.

سليمان أفندي رجل كفاح قل مثيله، ممن لا يعرف الكلل في عمله الحركي. فكان في عمره كله منافحاً صادقاً وثابتاً عن فكر أهل السنة والجماعة. فهو داعية الكفاح الشامل وليس الكفاح في خط الدفاع، في عصر تعرض الحس والفكر الديني إلى هزات متكررة... فنقش الشيخ الفكرَ الديني مع الحس التاريخي في نسيج أرواحنا نقوشاً بديعة... واجتهد في إشباع قلوبنا من أصول وجودنا بالدورات التعليمية ومساكن الطلبة وبيوت الإقامة في كل أنحاء البلاد، فلم ينِ ولم يفتر عن غايته هذه ورسالته حتى رحيله إلى حيث يطير الأرواح والروحانيون.

ولست أزعم أن أسطراً أو صفحات قادرة على تعريف رجل الحركة العظيم هذا... بل ولا المجلدات من الكتب تستطيع الإيفاء بحق إنسان الروح والمعنى، هذا الذي زان أرجاء البلاد من "أدرنة" إلى "أردهان" بالعلم والعرفان، وفي مدة قصيرة، وراغماً أنف العوائق. فنفتح هنا وليجة ضيقة، ونأمل أن يتوسع الباحثون والأكاديميون المنشرحون بالمعاني، فيفتحوا الأبواب على مصاريعها في تدقيق رسالة هذه الشخصية الفذة وعمله الحركي وفكره وفلسفة خدمته.

وعندما نفكر في مُنَوّري النصف الثاني من القرن العشرين، هل يمكن أن لا نتذكر نورالدين طوبجي، ابن الأناضول ذا العقل الولود وإنسان العشق والحماس مـــع التحفظ عن بعض مطالعاته التي لا تنسجم مع معاييرنا الأساسية... ولا نلتفت جيداً إلى ســـزائي قاره قوج، العقل المميَّز والفكر العميق، المنتظر لإفراخ البيوض بصبر حواضن القُنّ، الهادئ هدوء المرجان على آلام جراحه الدامية في سيره المتواصل، شاعر العصر وناثره العظيم الذي سيقرؤه أبناء الأجيال الآتية في شغف... أو لا نتوجه بالشكر والامتنان إلى أسعد أفندي... أو لا نستشعر الوقار أمام ســـامي أفندي، أو لا نتحسس العشق والحماس والحركية في معالي مسلك الخدمة لحضرة الأرواسي، وعلي حيدر أفندي، ومحمد زاهد قوطقو، وإمام "ألوار"، وشيخ سَيْدا "سردهل"، ومحمد راشد أفندي من "منـــزل"... ثم هل يعقل أن لا نذكر بديع الزمان النورسي خاصة، وهو الذي قلب مخططات دنيا الكفر والإلحاد رأساً على عقب بإيمانه وفكره وعمله الحركي المدهش؟

لقد كتب وقيل عنه الكثير الكثير. العالم كله يتحدث عنه. وهـــو من الأوائل الذيـــن يحوزون على أكثر عدد من القراء في العالم وبلغات عديدة. لذلك، لا نجد ضرورة ملحة للتعريف به، فنكتفي بإدراج مطالعة وردت في تقديم كتاب له:[1]

بديـــع الزمان سعيد النورسي: عَلَمٌ ينبغي التفكير فيه باعتناء وتعريفه للإنسانية بأبحاث مستفيضة، فهو رجل العصر الأول الذي أبرز إيمان العالم الإسلامي ومعنوياته وعمقه الوجداني الفسيح، وبصورة صافية ومؤثرة. ولا نحسب أن مقتربات الملاحظات العاطفية لفهم شخصيته وأفكاره مقتربات سليمة لمعرفته ومعرفة تراثه وآثاره. فالعواطف لا تتآلف مع جدية المسائل العالية الزخم التي أظهرها وأبانها بشجاعة عظيمة في كل زمان وآن. فقد

(١) يراجع تقديم كتاب "المثنوي العربي النوري" لبديع الزمان سعيد النورسي.

عاش حياته كلها إنسان محاكمة منطقية وعقلية، في ظل الكتاب والسنة، وبموازين التجربة والمنطق، في حال العشق والحماس العميق.

لقد دبجت الأقلام كتباً، وأطلقت الألسن خطابات كثيرة عن حقيقة الفكر العالي لبديع الزمان النورسي، وسعته الإنسانية، ووفائه، وإخلاصه لأخلائه، واستعفافه، وتواضعه، ومحويته، واستغنائه. والحقيقة أن كل خصلة من هذه الخصال التي يتصف بها ويتطرق إليها في رسائله مراراً وتكراراً، تستحق كتاباً مستقلاً بذاتها. ويشهد على أحواله هذه عدد كبير من أصدق الشهود الذين سعدوا بالعيش قريباً منه، ولا زالوا أحياء بين ظهرانينا كأنهم كتب شاخصة متجولة.

يبدو بديع الزمان إنساناً بسيطاً وعادياً من الناس في مظهره الخارجي لأول وهلة. لكنه يختزن شخصية راسخة قلّما تتوافر في غيره أو في كل زمن من جهة حياته الفكرية وعمله الحركي. فقد كانت تصرفات عادية بالنسبة إليه أن يحتضن الإنسانية جمعاء في المسائل الحيوية للإنسانية، ويمتلئ بغضاً وتقززا ونفوراً على الكفر والظلم والضلالة، ويحارب الاستبداد أنّى كان، إلى درجة الاستخفاف بالحياة لهذه الغاية بوفائه ومروءته وترحيبه مستبشراً بالموت. عاش إنسان حسٍ رحيب، ملتزماً في رسالته ودعوته بِفَلَك الكتاب والسنة لا يغادره، متلونا بألوان المحاكمة العقلية والمنطق. لقد اتصف في كل وقتٍ بصفتين ظاهرتين، الأولى: صفة كونه رجـــل وجدان رحيب، ومثال عشقٍ وحماس أصيل، وإنسان شهامة ومروءة عظيمة. والثانية: صفة كونه مفكراً متوازنا غاية التوازن، يتقدم على معاصريه أشواطاً في الرأي والبصيرة، وصاحب عقل سليم ينتج خططاً وبرامج شاملة. فالاقتراب إلى بديع الزمان ودعوته من هذه الجهة، مقترب مهم لفهم ما يعنيه لنا في عصرنا الذي نحن فيه باعتباره امتداداً لسلسلة عظماء الإسلام.

ومهما تغاضى بعضهم أو تناسى، فقد لقي بديع الزمان قبولاً بأنه مفكر

وكاتب بزّ أقرانه المعاصرين له، وصار رائداً وترجمانا لجمهور الناس، لكنه لم يصب بالعُجُب قطعاً، ولم يمل إلى الظهور والرياء، ولم يقرب منه الكِبْر. فمن بياناته الذهبية قوله: "الشهرة عين الرياء وعسل مسموم يميت القلب". لقد دخل التاريخ واحداً من المعالم في العالم الإسلامي، والعالم كله في الوقت الحاضر، الذين يرتقون الدرجات العليا في سلم الكُتّاب المشهورين والمقروءة كتبهم بشغف في كل وسط وزمان، والذين لم يذبل غصن جدتهم.

إن مصنفات بديع الزمان كلها ثمرة جهد جادٍ ودؤوب من أجل توضيح مسائل ومشكلات معروضة على الرأي والنظر في العصر الذي صنفت فيه – إذا أطللنا عليها من هذه الجهة–. فمن بين سطورها ينبعث صوت الأناضول، ثم العالم الإسلامي، حيناً نشيجاً ونحيباً، وحينا أملاً وشوقاً وطربا. ولئن كان النورسي قد ولد في قرية قصية من أصقاع شرقي البلاد، فإنه أحس في نفسه بمشاعر ابن الأناضول أبداً، وتنفس مشاعرنا وأحاسيسنا كسيد من أبناء استانبول، واحتضن الوطن جمعاً وكلاً في كل وقت وزمان، بشفقة رحيبة وخلوص شاخص وطري.

لقد أرشد بديع الزمان إنساننا المترنح برجّة تصيبه بعد رجّة، إلى السبل الموفية إلى نبع "الخضر"، ونفخ في جموع البشر هواء "الانبعاث بعد الموت"أينما رحل وحطّ، في زمان شؤم أوقع الفكر المادي فيه حياتنا الفكرية في تشتت الهرج والمرج، وجن فيه جنون الشيوعية، وسقط العالم في أسوأ أيام الضياع والظلمات والمحن. وذلك بمصنفاته التي تفوح منها نفحات الإيمان والأمل. لقد استشعر وشخص الداء الأعظم قبلنا وقبل الناس جميعاً، ألا وهو الفوضى الناشئة من الكفر والإلحاد، فتصدى لها. لقد نفث في إنساننا طوال حياته ضرورة التغلب على وباء العصر هذا... وكافح في سبيل ذلك كفاحاً فوق طاقة البشر. كان بديع الزمان في أوعى حالات الإدراك لواجباته الملقاة على عاتقه، عندما جابهه عالم ينشج في حمى ثقيلة الوطأة.

فلما حمل حملاً أثقل من جبل "قاف"، أحنى ظهره في غاية حال من التواضع والمحوية، وفي استحياء. ولكن في غاية الثقة بالقدرة المطلقة للحق تعالى وغناه اللانهائي.

فإن بديع الزمان –وبأدائه كالطبيب الحاذق– ذكّرنا جميعاً بالزنـــزانات التي في دواخلنا وأنواع المحكوميات في أرواحنا، وجرائمنا الذاتية وتقييد ذواتنا بأنفسنا، ونفخ في قلوبنا المشتاقة إلى العلويات أنفاساً متوالية بتحريك جوانبنا الإنسانية الخامدة من عالمنا الروحي وحياتنا الوجدانية، ونشر أمام الأنظار علاقاتنا الوطيدة المغزى بالأخرويات، وصب فوق رؤوسنا جميع واردات التكايا والزوايا والمدارس... في أيام نحسٍ سود سيق البشر فيها إلى الإلحاد بالاستغلال السيء للفنون والفلسفة، وتعرضوا إلى "غسيل الدماغ"! بالشيوعية، وأُبعد المتصدون لهذه السلبيات في البلاد نفياً وتغريباً، وأشيع في أرجاء البلاد أشد الخيارات المخجلة، والباعث للحيرة أن كل ذلك جرى باسم التحضر "والعصرنة"، حتى غدت "العبثية" (Nihilism) سحر العصر الساري كالنار في الهشيم.

نعم، قد صـــار النورســـي طبيباً حكيماً، مفكراً، وباحثا عن الحلول، وفاحصاً ومشخصاً، ثم واصفاً دواء هذه الأمراض، لزمن الفتن والهرج، كان الشعب فيه يعيش حمى الضعف الفكري والهموم الاجتماعية، ويُسَلَّط عليه مئـــات الحوادث المرعبة في أنحاء الوطن كافة، ويئن تحت ركـــام القيم الإسلامية والمُثُل التي تهدمت فوق رأسه. فهو رجل عاش منذ البداية مشدوداً دائماً، مفكراً، مقدماً الحلول البديلة للدولة والمجتمع، ساعياً في تلقين هذا الشعب المجيد لكن الفقير حظاً، وهـــذه الدولة الشامخة لكن الآفلة طالعاً، دروس ماضيه الرحيب والغني، إذ يرى حيرة الأجيال المسكينة المضطربة قلقاً تحت المصائب والنكبات المهولة التي أعدتها السنون السود الطويلة وجهزتها لها، فتتخبط في وديـــان العجز والضلالة والشك، وكلما أرادت الخلاص

دفنت نفسها في أوحال أزمات أعمق... يرى حيرتها، ويستشعرها، ويصغي إلى صوت ما يراه وما يستشعره.

ساح بديع الزمان في أرجاء كثيرة من البلاد منذ عهد الدولة العلية العثمانية، بمدنها الكبيرة أو قراها القاصية، وبنواحيها التي تعج بالبشر أو مناطقها القليلة أنفساً، فرأى حيثما حل سريان الجهل في الناس وتضورهم في الفقر وحد الضرورة، ونهشهم وإفناءهم لبعضهم بعضاً بأنواع التفرق، فخاف وذعر. فأراد أن يشحن تلك الجموع التعيسة بروح العلم، باعتباره مفكراً واعياً بأحوال العصر. والتفت إلى معضلة الفقر والحاجة والاقتصاد. وبحث عن حلول التفرق وصار داعية يتنفس وحدتنا في كل زمان وبلا توان... ولم يترك شعبنا وحيداً لحظة واحدة في تلك الأيام العصيبة الكأداء. كان ينادي بأعلى صوته حيثما حل: "سوف تؤول أمراضنا إلى أسقام مزمنة، وجراحنا إلى عطب لا يبرأ، إن لم نبادر منذ الآن إلى معالجة عللنا، وضماد جراحنا على أيدي حكماء حاذقين. فلا بد من تشخيص عللنا العلمية والاجتماعية والإدارية، وحل عقد مشكلاتنا المادية والمعنوية كلها، حتى لا نقع في مضايقات تسحبنا كل يوم إلى المهاوي الشنيعة التي تمضغ وجودنا وتهز كياننا من الأساس".

فالنورسي يرى مصدر المفاسد كلها -بالأمس كما اليوم- في الجهل والفقر والتفرق. الجهل هو أول الأسباب لمآسينا الاجتماعية ومقدمة الدواعي إلى بؤسنا السائد فلا شبهة في أن أعظم مصائبنا -أمس واليوم- هو الجهل بالله وتناسينا للنبي ﷺ وترك روابطنا بالدين والتعامي عن محركات تأريخنا المادية والمعنوية. ولقد جعل بديع الزمان حياته وقفاً على محاربة هذه الجراثيم القاتلة. فلا جدوى -عنده- في انتظار خلاص الشعب ما لم تُنوَّر جموع الناس بالعلم والعرفان، وما لم يتعود المجتمع على التفكير المنظم، وما لم توصد الأبواب بوجه تيارات الأفكار الخاطئة والمنحرفة. أليس الجهل هو الذي فك روابط الكائنات بالقرآن، وروابط القرآن بالكائنات؟ وبفك

روابطهما جعل أحدهما يتيماً في زنـــزانات خيال النفوس المتعصبة، الجاهلة لأسرار الوجود والمنحبسة في الأشياء والحوادث، وجعل ثانيهما عبثاً وفوضى في أيدي الجاهلين جهلاً مكعبا، الباحثين عن كل شيء في المادة، والعمين تماما عن المعنويات. ثم أليس الجهل هو الذي أبكى هذه الأرض المباركة نحيباً في قبضة الفقر والبؤس وجعلها متسولا يستجدي خدام الأبواب القدامى، وهذه سهولها المنبتة وسهوبها الفياضة وأنهارها الكوثرية؟

ثم، ألسنا بسبب الجهل والفقر نعيش بؤساء ومشردين، وفي شَدَهِ الديون الرهيب، محنية ظهورنا وطاوين على بطوننا، وتلك معادننا التي لا تقدر بثمن نائمة في سكينة تحت التراب، ومصادر ثرواتنا التي لا تعد ولا تحصى، تصب في خزائن غيرنا؟

هذا البلاء يعذب شعبنا منذ سنين طويلة... فالعامل والفلاح يكد بلا كلل وينسحق رهقاً، ثم لا يجني ثمار كده وكدحه. وإن جنى شيئاً فلا يجد فيه بركة، ولا يسعد به، ويتوارى شيئاً فشيئاً قهراً وشقاء.

وبسبب الجهل والتفرق المنبعث من الجهل، يعيش العالم الذي يرتبط بنا وحيثما كان، حيـــاة من القهر والأســـر والتحكم والذل وأنواع البلاء والأمراض، ويغرق في بحار الدم، وتنتهك فيه الأعراض ويداس على الشرف، ويعجز عن كبح جماح الفرقة وإعطاب عجلة الفواجع والفضائح في تقلبه ذات اليمين وذات الشمال في هذا العالم المترنح في شِباك فقدان الموازنات والمعايير... بل لا نجد وسيلة لخلاص العالم الإسلامي من التدحرج يوما بعد يوم إلى مهاوٍ مهولة وبئيسة، ولا نتحفز بروح الوحدة، ولا نصفي حسابنا مع العصر.

إبّان تجرعنا الآلام في فخ الأوجاع القاهرة المتسلطة على شعبنا، تداعى قومٌ خَلَبَ أبصارهم بريق رقي الغرب الصوري والمادي، فتكدرت بصائرهم ودارت رؤوسهم، فجردوا جموع البشر من السجايا "المِلّيّة" وحرموهم من

حس التاريخ وسلبوهم الأخلاق والفضيلة، لهثاً وراء تقليد أعمى وشعارات خداعة، بتصرفات لا جذور لها ولا روح فيها البتة، بدلاً عن إمداد أدمغتهم بالعلوم التجريبية، وقلوبهم بالحقائق الدينية، بلوغاً إلى الغنى المادي والمعنوي. وعندي أن سيرهم في الطريق الأول الذي انحرفوا إليه باسم إنقاذ الشعب، أوقع الضرر الأعظم وفتح في روح المجتمع جرحاً لا يندمل.

ففي الحال الثاني المذكور آنفاً قد يطول المكث الأليم في كابوس خانق سنين وسنين. ولكن باختيار الحال الأول هوى وانهار صرح فضيلتنا "الملّيّة"، ونجابتنا الروحية، وعملنا الحركي ذي الاحتواء العالمي.

لقد واجه بديع الزمان المعالجات في كلا الحالين وتصدى للتعقيدات الاجتماعية التي خلفتها أخطاء هذه المعالجات، وشق بمبضعه أورام قرن من الزمان، وشَرّح وشخص الفواجع الناجمة من احتقان قيحها. فأعاد ابن الوطن البار هذا، وكرر بلا فتور قولاً وكلاماً ثابتاً، وحمل على أدوائنا بلا كلل حملة دائمة لا تضعف، ووصف لها أدوية ناجعة، من أجل إنقاذ الوطن وخلاص إنساننا من السقوط والضياع. فلم يتوان عن ذلك طوال حياته من بدايتها إلى وقت لقاء مولاه الجليل في "أورفة"، بصدق وإخلاص قلبي، وبصوت جهوري وقول متين. إن غرس أفكار جديدة في عقل المجتمع عمل شـــاق وعسير بقدر انتزاع العادات والتقاليد الموروثة من الماضي بنفعها وضرها والمفاهيم والمتلقيات الراسخة. وفي جموع البشر ميل دائم في الماضي والحاضر إلى الوقوع في مؤثرات أمثال هذه التركات –سواء النافعة منها أو الضارة– فتصطبغ الحياة الفردية والاجتماعية بصبغة هذه المؤثرات، وتشمئز مما لا ينسجم مع المعتاد ولا يداعب الحس العام، فينفرون مما يخدش حسهم ويبتعدون عنه. وقد يخطئ هذا الحس أو الشعور أو القبول أحياناً. فإن كانت مثل هذه الأفكار والقناعات غير الصحيحة قد وجدت رضا وقبولاً عند الجمهور والجموع البشرية، وتمثلها المجتمع بطول المعايشة، ومدت جذورها وتنامت أغصاناً وفروعاً في منابت الحياة واستقوت، فاللازم لتقدم

الشـــعب نحو المستقبل أن تُهدم هذه القناعات الخاطئة، وأن تُـــزال هذه الانحرافات الاجتماعية، وأن تُنظّف القناعات المتعفنة بتمرير الأفكار العامة ووجدان البشر من مرشحات التخلية والتحلية، من الحَسَن إلى الأحسن، بمعنى التصفية من كل فاسد والتزود من كل صالح.

وهكذا كان بديع الزمان النورسي منذ أيام الشباب في مشاعره وأفكاره. فعَدّ إخفاء أدنى حقيقة في هذا الباب غدراً بحق وطنه وإنسانه، وفتح ذراعيه بطولهما حاجزا أمام الأفكار والقرارات الخاطئة المودية بالشعب إلى مهاوي النكبات، ونادى بأعلى صوته صارخاً: قفوا... هذا الطريق مقطوع! كانت فطرته متحيزة انحيازاً كاملاً ضد كل خطأ أو كل ما يناقض القيم الدينية. وكان صاحب أفق مديد وذا همة من أهل العزائم. فغضُّ الطرفِ عن فناء أمة عظيمة واضمحلالها، واللامبالاة بذلك، يناقض ويضاد طبائع هذا الإنسان الطاوي صدره على قلب أسد. فأرشد الأمة إلى محاسبة نفسها بعد تسليط الضوء على أدق وأخفى نقاط قصورنا ومعايبنا وأسباب مصائبنا ونكباتنا. فذكرها من غير ملل بأسباب انقراضها ووصف لها سبل الخلاص، وأبان جهاراً أشد الحقائق إيلاماً من غير تلكؤ... وحَمَل بخَيْله على القناعات الخاطئة والأفكار المتعفنة والكفر والإلحاد... وكافح بلا هوادة وطوال حياته مقاوماً عوائق انتشار أنوار الحقيقة جميعاً.

لقد انبرى النورسي في أحلك العصور، إذ أحجم الناس عن ذكر الحقائق الدينية توجساً وخيفة، فشحن جموع البشر باليقظة لما أرادوا لهم الغفلة، وأعلن الحرب على الجهل والفقر والتفرق، وزعزع أركان أنواع الأوهام التي جثمت على صدر المجتمع، ومارس كفاحا على طول البلاد وعرضها وليس في خط الدفاع فقط ضد الإلحاد وإنكار الألوهية، وكذلك، خنق الباطل والخرافات في إشكالاتها المنغلقة. وأبدى دوماً جرأة مدنية سلبت الألباب إعجاباً في إشهار همومنا المزمنة وسبل معالجتها. لقد اُشْتُهر أن "آخر الدواء الكي". فكأنه في مجالدته للرياء وحب الظهور والكبر المستفحل منذ قرن أو

قرنين وسَمَهَا وكواها بالساقور، فخاطب بقول ثرٍ وندي وَجَد صدى في روح كل إنسان، يستوي في ذلك رجل السراي ورئيس عشيرة في شرق تركيا، والمشيخة الإسلامية وأركان العسكرية. فلما خاطبهم شدّ إليه أنظار الناس من كل صنف. ومع أن جِبلّته تنفر من ذلك أشد النفور، فإن طبائع شؤونه وأموره استدعت ذلك الالتفات.

نبّه النورسي كل فئة إلى ضرورة كسر الأغلال الآسرة لأفكارنا وأرواحنا، قبل سل السيوف من الأغماد، إن أردنا دوام الجهاد... وأرشد الأجيال الفتية إلى السبل الموفية إلى الفكر الإسلامي في بشرى "الانبعاث بعد الموت". فكان يخشى ويرتعش فزعاً من انقسام جغرافية الوطن وتمزقها وانكماشها، لكنه كان أشد فزعاً من أمور تؤدي إلى تلك السلبيات مثل ضيق التفكير وبؤس الأرواح وتقليد الغرب والشكلية.

لم يملّ النورسي من الإصرار على القراءة والتفكير والعمل، ولم يكلّ من السعي لأجل إنقاذ أفراد الشعب من الفردية المتبادلة وبناء مجتمع مثالي وشعب عامر. فكان يلح على "المعارف" و "التربية والتعليم". فيحث بالضرورة على نشر المعارف والتربية والتعليم في كل مكان وبكل وسيلة... فينبغي عنده انخراط المساجد والمدارس والمعسكرات والدروب والمتنزهات، بل حتى السجون، في نفير التعليم العام. فبالمعارف وحدها تتحقق الوحدة العقلية والمنطقية. فالذين لا يتوحدون عقلاً بعقل، ولا ينصهرون على ذلك، يعجزون لا محالة عن السير معاً في طريق معين زمناً طويلاً، ولا يحفظون تساندهم وتعاضدهم. فينبغي أن يتوحد الوجدان أولاً. حتى تتوحد القلوب والأيدي. ووسيلة وحدة كهذه هو ضبط الحياة بضوابط الدين وتفسير الأمور المتعلقة بالزمان حسب مدارك العصر مع التقيد بالكتاب والسنة والاجتهادات الصافية للسلف الصالح.

نعم، لا بد من أن يتعرف إنساننا بهذا العصر، وبواردات العصر ومعانيه

وتفسيراته، وأن ينجح في ذلك ويتواءم معها. فإن مقتلنا في انحسارنا داخل قشورنا واستغراقنا في الانـــزواء، والدنيا تسير سابلة الزمام. فلابد أن يمسك الذين يريدون أن يحيوا حاضرهم بحبل الانسجام والوئام والتعاون ما بين شلالات الحياة، وبين إرادتهم الذاتية وسعيهم وجهدهم. وبخلاف ذلك، لا مفر من الاضمحلال في حال مقاومة التيار العام في الكائنات.

ولو تفهم عدة مئات من المثقفين بديع الزمان وأعانوه، عندما كان يسعى حثيثاً ويلهث ركضاً في كل ناحية من أرجاء البلاد، عارضاً رسالته، فربما كنا اليوم أغنى من كل دولة، وأسبق شوطاً في الحضارة بين الأمم، وربما بلغنا قوة كانت تؤهلنا لاجتياز العراقيل التي وضعت في طريقنا لاحقاً، فكنا انخرطنا في طريق النور –الذي يبدو كأننا انخرطنا فيه الآن– منذ بداية القرن العشرين، ولم يكن الكثير من مشاكلنا الحالية تواجهنا اليوم. مع كل هذا، لا زلنا متفائلين وأنا أجزم بأن الذين يزعمون أن منابع المعاني لشعبنا قد نضبت تماماً هم في غفلة وذهول. نعم، قد سقطنا مثلما سقطت شعوب أخرى... هذه حقيقة ظاهرة لا يمكن أن تخفى. لكن قدرتنا على رفع هامتنا واستعادة وعينا أيضاً حقيقة لا شك فيها. ونرى في الحاضر بوارق لمعان يقظة تحل محل الركون القديم إلى الراحة. فثم حرارة للحيوية الندية والانبعاث الطازج تسري في أرواحنا الغارقة في أحضان الراحة والخمول. ولابد أن يعقب هذه التطورات ربيع زاهر الأيام. لكننا في انتظار رجـــال يسيحون فيفرشون الوديان بالســـجادات كالخِضْر، ويفتحون الأشرعة في السهوب بلا وجل كإلياس. وبديع الزمان علامة مهمة في هذا الطريق.

يقال "إن العبقري لا يَختار". والمعنى أن الداهية لا يقول أعملُ هذا ولا أعملُ ذاك، أو يحكم بأن هذا العمل مفيد وذاك ضار. لأنه صاحب فطرة خارقة يجمع في روحه قوى تتحمل فوق أكتافها أموراً كثيرة بموهبة إلهية وبسائق وشـــائق لدني، فيحتضن بها حاجات محيطه الظاهرية والباطنية

والروحية والاجتماعية بأعمق أغوارها وأوسع حدودها. ومن يمحص النورسي ومصنفاته سيجده جامعاً لعناصر الدهاء. فيرى أنه صان رفعة درجته فوق الدرجات دائماً وتكلم بدهاء في كل زمن، ابتداء من أيام شبابه في كتبه التي تُعدّ من أول أنفاس دهائه، بثها فيمن حوله، إلى مصنفاته التي انكشفت وتكاملت في عمر النضوج عبر حياة معذبة مرت بالمحاكم والسجون والمنافي.

opeikandl.com

نحو عالمنا

لا يخفى على نظر المتبصر تداخل الفكر والحركية ببعضهما في وقائع التاريخ العظيمة. تداخل يتربى ويتبرمج فيه العمل الحركي بالفكر من جهة، وتهيئ فيه الحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة من جهة أخرى. فكأنّ الفكر -بهذا المعنى- سماء ومطر للعمل الحركي، أو فضاء وهواء له، وكأنّ الحركية أرض وسندانة للفكر، أو تراب وقوة الإنبات فيه. فلا أحسب هذا الأداء المتقابل بينهما غلطاً. ذلك بأن كل جهد حركي هو تحقق فكر وبرنامج، وكل فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أطره الحقيقية وبلوغ مراميه في ثنايا التحركات الملتزمة بـــه. إن المرحلة الأولى للإرادة هو ميل داخلي، وَحَدُّها النهائي هو العزم والقرار والهمّ بالعمل. والفكر في هذه الوتيرة كخيوط لفائف تلقى من المبتدإ لتتعلق بالمنتهي، والأعمال الحسية كنقوش تزين هذه اللفائف. وإن التصرفات من غير فكر أو برنامج تؤدي في الأكثر إلى الفشل والفوضى، وإن الأفكار الجامدة من غير حركة، تعيق تشكل الأنموذج الذي يُعدّ البعد النهائي للفكر، وتُصَدِّع روح الإرادة.

إبّان تقدمنا إلى عصرنا الحاضر، حُجبت أنوار الفكر عن إضاءة زوايا المجتمع، وعُطلت الإرادة تعطيلاً كاملاً... ومُنع "التمثيل" عن التأثير وذُبح الحركية على يـــد الفوضى. ودفعت أحداث التـــاريخ المشؤومة المجموعات البشرية من مأزق إلى مأزق، ومن تشتت إلى تشتت. وجرّت النفوس الأنانية والنفعية الكتل الإنسانية يمنة ويسرة. واستُغلّت على الدوام للانتفاع منها. فلا مفر ولا منجى إزاء هذه السلبيات في إنساننا المعاصر من القول: "رويداً.. ومهلاً قليلاً"، إلى حين النضج الكافي لتحريك قواه القلبية والعقلية. لا مناص من أن نقول: "رويداً.. ومهلاً قليلاً" إلى حين إزالة الضعف في

سجايانا الفردية، وإشباع إرادتنا بالقوة، وتربية معتقداتنا حسب مقاييسها اللازمة، وانتزاع اليأس بأنواعه من نفوسنا. وقبل كل شيء، من أجل الانسلاخ من "الانشداه بالغرب".

نعم، قد أوقعتنا هذه الحادثات المتتاليات في الغرب، من النهضة الصناعية إلى التقدم التكنولوجي المعاصر، في شَدَه بعد شَدَه، فأصابتنا بالشلل، كما دوّخت رؤوسنا وكدرت أبصارنا المُتَلَقَّيات الخاطئة لدعوى "العلمية" والخفة الفارغة "للعصرنة". وربما يدوم هذا الضعف والاهتزاز مدة أخرى. وربما يستمر المشي في السبات والتكلم في النوم، فيلزم أن نصبر ونحتمل سنين، علمها عند الله. نعم، سنصبر، لأننا نعي ونستشعر الحاجة إلى سنين قد تطول من الانتظار الحي في الأعماق المرجانية، ومن الحركة المؤثرة والمنظمة في حضانة البيوض، حتى يتعافى سائر البدن المتضعضع، ويستجمع قوته ليقتدر على تصفية حسابه مع العصر.

وإني أؤمن إيمانا صادقاً بأن هذا الانتظار والحركية سيحيينا ويحقق بأيدينا تغيير وجه العالم في يوم آتٍ. لكن لا شك في الحاجة إلى الزمان والظروف والإمكانات ليسري دم هذه الوتيرة في عروق الحياة، فتنبغ إرادات عظيمة وقوية تتّسِم بعمق الشيخ عبد القادر الكيلاني ورحاب الإمام الغزالي وربانية مجدد الألف الثاني الإمام أحمد الفاروقي السرهندي وعشق وحماس مولانا جلال الدين الرومي وجامعية ورسوخ بديع الزمان سعيد النورسي... لتهيء بيئة حياتية ندية وطرية ببث روح جديدة في إنسان يومنا، فتصد أمواج حُمّى الأزمات التي تحطم منذ عصور إحساس إنساننا وفكره وفراسته، فتنفخ في روحه أنسام "الجودي". كذلك، لأجل أن نفتح بلاد أنفسنا بأنفسنا، ونُشكّل حركيات أرواحنا من جديد، ونعمّر عالمنا القلبي والحسي والفكري. وعلى الضد من ذلك، لن نستطيع أن نقطع شوطاً في الطريق، مثلما لم نستطع حتى الآن، ما لم نجهّز فرساناً من نور يأخذون بأيدينا إلى

منابع "الخِضْر"، وما دمنا منعزلين عن ذاتنا وقيمنا الذاتية، وطالما عشنا تائهين خارج منظوماتنا الروحية. وما من سبب يدعونا إلى البحث عن عدونا في الخارج. لأن عدونا في داخلنا... جالسٌ في قصره، واضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، يتطلع من الشباك على ضياعنا، ويضحك ضحكا مكتوماً.

فإن كان لازما بالضرورة بناء استراتيجية الجهاد، فينبغي أن يبنى على انتزاع وطرح أعداء متربعين فوق عروش نصبوها في قلوبنا، لا أمان ولا إيمان عندهم. والواقع أن هؤلاء، ولا غيرهم، هم الذين يحاصرون عالمنا منذ قرون. ومرت سنون طويلة ولم ينج شعبنا من هذا الحصار القاتل، ولم يفلح في العودة إلى الذات، ولم يقم على ذاته. فصار مثالاً للتشرذم ولم ينجح في لمّ شتاته، وكأنه غرض مستهدف لرماية مجتمعات وأعراف وعادات شتى، أو كأنه منكوب في عقله يمر به أقوام وقبائل كثيرة ومفاهيم متنوعة، ويعبد أصناماً كثيرة في آن واحد ويجثو أمام آلهة موهومة كثيرة في وقت واحد، ويجدد العهد والولاء لمعبودات مزيفة عديدة في يوم واحد! هذا ما وقع... لأنه لم يصدق تماماً بصحة وسلامة أي فكر من الأفكار في تلك الفترة المشؤومة. ولذلك، عاش مرتبطاً بمحاور فكرية متعددة في وقت واحد، لكنه لم يعايش تياراً واحداً منها معايشة كاملة.

ومن يعلم كم فكر عظيم بقي حبيساً في برزخ، فلم يشهد الحياة، في هذا العالم المثقل بالدخان والضباب، وكم منهج جاد تحطم مصطدماً بالأفكار الكدرة للمصابين بقصر النظر! فهؤلاء لا يولون أهمية ولا يعون معنى للعلم ولا للمعاني التي تربط بين الأشياء والحوادث، ولا للمناسبات بين الإنسان والكائنات.

فالمسألة عندهم أن نفهم ما نفهمه، ونترك ما لا نفهمه باعتبار أننا سوف ندرك فهمه لاحقاً! وأن نقطع ونفصل ونشكل كل شيء حسب ثوابتهم، وأننا نستطيع بمهارة أن نسيّر حتى العلم والأبحاث تحت وصاية معتقداتهم

ومبادئهم المحرمة على النقاش، بإظهار حقائق أسـطع من الشمس كأوهام، والأوهام كحقائق متى ما دعت الحاجة! وبالتشدق والتفيهق بأسلوب قاطع، والحسم والحزم بناء على فرضيات! وكأنهم شهود على الوجود وأطوار الوجود منذ البداية!

ولئن كانت الكائنات خالية من كل حقيقة تستحق الإيمان بها، ولئن كانت كل فكرة غير جديرة بالإيمان والقبول، فالوجود إذن عين الفوضى! وكيف نستطيع أن نحمي المجتمع من النسبية حتى في المسائل الفرضية غير المحتملة، إذا ما تحكّم في العالم فهم كهذا؟ أولن يحسب جموع البشر الذين استسلموا لتيار النسبية أصدق الحقائق صحيحة بقدر صحة مضاداتها؟ وأكذب الأباطيل بقدر كذب مضاداتها؟ وبدهي أن يخضع كل شيء للتلقّي النسبي الهائم، في حال شيوع مثل هذا التفكير، سواءٌ في فهم الخير والشر، أو الأخلاقي واللاأخلاقي... إن الشخصية التي يحتاج إليها شعبنا أمسّ الحاجة، هي شخصية الإنسان المخلص المتحمس والمتوازن، الذي يحركه الشعور والإدراك والمسؤولية، ويهيمن على تصرفاته وأعماله التفكير في الأيام القادمة في خططه وبرامجه بقدر التفكير في ضرورات الحاضر. شخصية مهندس الفكر والروح، المنفتح على الوجود بقلبه، العامر عقله بشعور العلم، المقتدر على تجديد ذاته كرة أخرى في كل آن، المتتبع للنظام في كل وقت، والمصلح لتخريب آخر في كل لحظة...

تلك الشخصية تهرول من نصر إلى نصر، ولكن ليس لتخريب البـلاد وإقامة العروش فوق خرائبها، بل لتحريك المشاعر والمَلَكات الإنسانية، وتقويتنا بالحب والرعاية والمروءة التي تحتضن الناس كلهم والأشياء جميعاً، وإعمار الأرجاء المنهدمة، ونفخ الحياة في الأوصال الميتة، لتتحول إلى حياة ودم يسري في عروق الوجود، وإشـعارنا جميعاً بالأذواق الرحيبة لغاية الوجود. هـذا الإنسان بطبعه رباني في كل أحواله وبكل ذاته... وهـو في مناسـبة دائمة مع الوجود باعتبـاره خليفة الله. وحركاته وأفعاله كلها مراقَبة... فلا

يقوم بعمل إلاّ بحس من يعرضه على التفتيش... حتى يكون الله سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر بـــه... ويكون أسلوبه مترشـــحا من تأثير بيانـــه... ويكون تحت إرادته تعالى "كالميت في يد الغسال". وإن إحساسه بعجزه وفقره أمامه تعالى هو أعظم مصدر للقوة والغنى... فلا يني ولا يفتر من الاستمداد بأحسن وجه من معين هذه الخزينة التي لا تنضب ولا تنفد.

كذلك، هو إنســـان المحاسبة والمراقبة الرحيب. الخير والشر، والجمال والقبح في مرآة روحه منفصلان عن بعضهما ولكل شيء موقعه الملائم فيها، كاختلاف الليل والنهار، والضياء والظلام. إنه ســـاعٍ، بكل إرادته وقلبه وشعوره، إلى اصطياد أعظم المقاصد المترتبة من حركية الوجدان، واللطائف التي توجد الوجدان. وهو في حال الإدراك بأنه "لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه"، يتنفس القرب متقدماً على الملائكة خطوات بمعرفته، وبالمناسبة بين الإرادة والمسؤولية، وبالعلاقة ما بين القلب والعشق، وبتماســـه واطلاعه الشاعر الواعي على أسرار الوجود وأسرار ما وراء ستار الوجود، وبالحقيقة المطلقة "بلا كم ولا كيف" في حسه.

هو قاصد في حياته الشخصية أن يبلغ آفاق الإنسان المثالي يسابق ويباري الأولياء والأصفياء في تمثله بالأوامر والنواهي الإلهية، ويَشقُّ فيه الشعرة أربعين شقاً تدقيقاً وتمحيصاً. هو فوق كل خيال في شجاعته في أن يحيا الإسلام الحقيقي، وفي تصرفه ضد كل ما يبغضه الحق تعالى، وصموده ومقاومته إزاء ما يصيبه في سبيل إحياء ما يؤمن به. ويعجز التعبير عن سماحة معاملاته مع الناس، وعمقه في معرفة الله، وتواضعه الجم، وإحساسه بعظمة الله، وبالوجود من حيث علاقته بـــه تعالى، وبالعشق والشوق والتعلق والاهتمام.

إنه قبل كل شيء، وبعد كل شيء، هو إنسان المعرفة اللدُنية والواجب اللدُني. وينبغي أن نقف وقفة خاصة عند مفهوم "إنسان الواجب اللدُني".

مهندسو الروح الربانيون. . .

قد يمط بعضهم شفتيه استخفافاً إذا ما ذكرت القيم الأخلاقية والأعماق الداخلية للإنسان وأهمية الحياة القلبية والروحية. لكن لا شبهة أن السبيل الموصل إلى الإنسانية الحقيقية هو هذه القيم. فمهما كانت ظنون نفر منا، فليس اليوم أمام إنساننا المعاصر، الذي انطوى ظهره وحمل على حَدَباته أثقالاً مختلفة من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، إلاّ سبيل واحد ينقذه من الضيق والشدائد المتوالية؛ وهو عودة الحياة إلى تلك الحركيات المذكورة آنفاً. وإن تحقق هذه الرسالة الحيوية لن يكون إلاّ على أيدي ربانيين لا يولون أهمية لأشخاصهم، ولئن اهتموا بأشخاصهم، فلا يرون خلاصهم إلاّ في خلاص الآخرين.

وعندنا -كما هو في حقيقة الإسلام- الخلاص من المسؤولية أمام الله تعالى مرتبط بالجهد والهمة في البحث عـــن طرق هذا الخلاص. نحن نرى سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في أن نكون ملجأً للأرواح الأخرى، وفي ضخ النور في الإرادات الأخرى، وفي إعلاء القلوب الأخرى إلى الذرى... ونرغب دائماً إلى إشغال مكان بين الذين يتلقون الحرائق بصدروهم ويولّون للمنافع الذاتية أدبارهم. وبدهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا وتحركاتنا، موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية المغروســـة عروقُها عقيدةً في أرواحنا.

نعم، إن هذا النمط من الشـــعور بالمسؤولية وعزيمة الهمة العالية وإرادة القيادة الإرشـــادية، التي تتعدى حدود فرديتنا دائماً، والتي تشكل أشد النويات حيوية في النظام المحتضن للعالم كلاً وجمعاً، فتصير أهـــم مصدر للأمان الكوني، هي الأساس الفريد لخلاصنا، كما هي صوت مؤثر ولسان بليغ يهمس بالروح والمعنى اللذين تحتاج إليهما الإنسانية جمعاء.

ولن يدرك الخلاص البتة، أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأنانية. ودع عنك إدراكهم الخلاص... فكم تسبب هؤلاء حتى في هلاك الذين أحسنوا الظن بهم. بل المشاهد أن المراحل التي تقدمت الإنسانية فيها هي مراحل تصالحها وتعارفها مع الوجود. وينبغي في الحاضر أيضاً أن يترك الذين يبرمجون لمسيرة المستقبل الأنانية جانباً، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة واللزوم. وستجد الإرادات والأفكار تقويمها الحقيقي بقدر نوالها لمساندة الهيئات المتكاملة والعزائم المتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعاني. فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعة، ومن قطرة إلى بحر، وبلوغ الخلود بهذه الوسيلة، هو الفناء بالذوبان في الآخرين، والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم.

ومن مقترب آخر، أن يكون الإنسان "إنسانا" وفق المعنى الذي يجعله إنسانا حقا، مرتبط بخضوعه لأوامر قلبه واستماعه إلى روحه، رغماً عن بدنه وجسمانيته وعقل معاشه الدنيوي. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، ويقيّمهم بموازين القلب المتأهلة للاعتبار والتقدير، لكي يتعرف جيداً على نفسه وما حوله. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحفظ طراوة قلبه وصفوة روحه في كل أوان، ولا يقي نقاءه وطهره كنقاء وطهر الأطفال برفقة ثرائه الذهني والفكري والحسي في كل وقت، لن يوحي بالثقة إلى من حوله ولن يحوز على التصديق والإقناع قطعاً، مهما توسع في رحاب العلم والأدب والخبرة. ولذلك لا يطمئن ولا يثق جموع الناس بنفر من السياسيين وآخرين يسوقون القوة والجبروت أمام المنطق والمحاكمة العقلية والقلب ما عدا الذين يظهرون التصديق خوفاً واستسلاماً. إن الأرواح الطاهرة والقلوب الصافية قد اتبعت دائماً الفكر النزيه والسلوك السوي النابعين من القلب. نعم، القلب الطاهر المحافظ على صفوته الفطرية قد احتسب -كما في إيماءة لقول مبارك- بيتاً للحق تعالى معلوماً

بالمكنون والمكنوز. في هذا البيت يمكن الإحساس والشعور بحقيقة اللاهوت بلا كم ولا كيف بدرجة طهارة أبعادها الأخروية وسماويتها، وبالطبع إن من قال "رأيت" أرادوا القول بالرؤية بهذا المعنى... فهذه الأرواح الصافية المطلقة عن الزمان، بلغت الفردوس -الذي يحتمل، أو حقيق، أن يدخلها الجميع في الأخرى- بَلَغَته وهي لما تزل في الدنيا، في نواة "طوبى الجنة" داخل قلوبها، واطلعت على الكائنات في الذرة، بل تُعَدّ واصلة إلى نقطة أبعد من ذلك، إلى أفق الرؤية.

وإن القرآن وصاحب القرآن حين يبين لنا رجل القلب، فهو أهل الحقيقة وإنسان القلب الذي يرى ويفكر ويتصرف بكليات قلبه كافة، وقيامه وقعوده رحمة، وقوله وكلامه وئام، وأحواله كلها رقة ولطافة. إن غاية خيال رباني كهذا: مواضيع رحيبة ومهمة مثل الانتقال بالأرواح كلها إلى التواجد الأبدي، وتقديم إكسير الخلود إلى الجميع، والمثول في أعماق ذاته، وفي العالم الآفاقي، وبالطبع في دنيا قلبه، وفي حضور ربه، متجرداً تجرداً مطلقاً عن نفسه ومنافع ذاته وهموم مستقبله. إنه حامل قلبٍ نبوي مهتم بهموم الغير، يترفع على بؤسه البدني والجسماني، فيخطط لسعادة البشر حوله، ويرسم البرامج نقوشاً من أجل أمان وحبور المجتمع الذي ينتسب إليه، ويعتريه خفقان بعد خفقان لعذاب الإنسانية وبؤسها، وأمته خاصة.

ولذلك فهو بطل عزيمة نبوية يخاصم الشرور التي تخنق العالم كله، وإنساننا خاصة، يقوم ويقعد مع آلام البرامج التي ينبغي إنجازها لدفع تلك الشرور، بدلاً عن الركون إلى ذهاب مغلق مفاده أن "تصوير الأباطيل تصويراً جيداً إضلالٌ للأذهان الصافية"، ولا يملّ من ابتلاع حلول العثرات غصة بعد غصة، ولا يكل من مداهمة المعضلات طافحاً في حب جاد للواجب وحرص على المسؤولية وشعور بالإحسان. بطل عزيمة يحلق بجناحي عجزه وفقره، ويتوتر بالشوق والشكر، ويئن أنينا تحت مسؤولية إحياء الانسجام العام والحقيقة.

وإنها لمسؤولية عظيمة لا تترك أيّ مسألة تدخل في إطار إدراك الفرد وإرادته الشاعرة. مسؤولية إزاء الوجود والحوادث... مسؤولية إزاء الطبيعة والمجتمع... الماضي والمستقبل، الأحياء والأموات، الشيب والشباب، القارئ والأمي، الإدارة والأمن... مسؤولية إزاء كل إنسان وكل شيء... وبالطبع الإحساس باضطراب وآلام هذه المسؤوليات في القلب، وإشعارها عن نفسها في الروح خفقانا مجنونا بعد خفقان؛ هو جزء من جدول أعماله اليومية، يتبارى ليحوز على الموقع الأول في السبقِ. وأظن أن هذا هو العزم النبوي الذي يرفع الإنسان درجات فوق درجات عند الله، ويُكسب القرب من الرب، وبهذا العزم يُتوصل إلى المعراج الروحي.

وإن الاضطراب والألم الصادر من الشعور بالمسؤولية، مع استمرارها ودوامها خاصة، لهو دعاءٌ غير مردود، ومنبع وافر للبرامج البديلة، ونغم أشد تأثيراً في الوجدان المخلص المحافظ على طهارته. إن كل إنسان روحاني مرشح -بقدر سعة اضطرابه- لتجاوز طاقته الذاتية، بل لتجاوز طاقة جماعته التي ينتسب إليها... وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والآتية. وأنبّه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيَون والذين يُحيون (غيرهم). وقد كررنا مراراً وتكراراً: أن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم. أولئك الذين لا يطلبون أن تتبعهم الجماهير... لا يطلبونه، ولكن وجودهم نداء جهوري، وأي نداء! فأينما كانوا، يهرع الجميع إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب... وقد يستقبلون الموت بسعادة وراء ريادتهم.

وسيكون المستقبل أثراً رائعاً للربانيين الممثلين لهذه الرسالة المهمة برؤى المسؤولية، وكذلك بمشاهد النجاح فيه. إن وجود شعبنا (والشعوب المتصلة

به) وبقاءه، ومجموع الواردات لحضارة جديرة وندية، والحركية الرحيبة الباعثة للحياة لثقافة ثرية، ستتنفس بأنفاس أولئك الربانيين، وتعلو رايات على أكتافهم، وتُنقل على كواهلهم المتينة إلى الزمان الآتي... وأقول "تُنقل" لأنهم أمناء مُستودعون للحقائق العالية ووارثون لثرائنا التاريخي.

ومعنى وراثة التاريخ هو وراثة كل ركام الماضي، المعروف والمجهول والصغير والكبير، وإنماء هذا الركام واستحداث مركبات جديدة منه، ثم نقل ذلك كله إلى الأجيال القادمة، أصحابه الحقيقيين. فإن لم يوفِ هذا الوارث رسالة التاريخ المتعلقة باليوم والغد حقها من الاهتمام، فسوف يحسب مسؤولاً عن خراب اليوم وضياع الغد. وهي مسؤولية تجعله -بقياس معين- في موضع خيانة القضية والتاريخ وهدم الجسور بيننا وبين المستقبل، إذا ما وقع الوارث في غفلة وتقاعس، أو توقف للبحث عمن يحيل إليه الأداء، بل وحتى إن بهرته محاسن الآخرة الجذابة فذهل رغباً إليها. فمن الضرورات اللازمة حقاً أن نوقن بأن المستقبل لنا من حيث وجودنا وبقاؤنا، وننظر إليه بهذه العين. فمن المهم لتنشيط حركتنا أن نجعل ذلك في رأس أولويات مشاعرنا وأفكارنا وبرامجنا. وخلاف هذا تحقيرٌ وخيانة للأمة. لقد آن الأوان، بل يكاد يفوت، لكي نحمل أعباء مؤسساتنا في كل مجال مثل الدين والعلم والفن والأخلاق والاقتصاد والعائلة، ونسمو بها إلى مواقعها الحقيقية في تاريخنا. فنحن أمة ننتظر ونترقب رجال عزم وإرادة وجهد يحملون هذه المسؤولية.

فنحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونظم فكرية تستجدى من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء الروح والفكر الذين يحفزون في شعبنا كله حس المسؤولية وشعور القلق والاضطراب... حكماء الروح والفكر الذين يُمَكّنون التعمق في أرواحنا بدلاً عن وعود السعادة المتقلبة إلى الزوال، ويرفعوننا بحملة واحدة إلى مراتب نرى بها المبدأ والمنتهى معاً وسوية.

نعم، ننتظر رجالاً يعشقون المسؤولية والقضية إلى درجة يتخلون فيها حتى عن دخول الجنة، وحتى الخروج منها لأجلها إن دخلوها... رجال يقولون: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه"[1] هذا أفق نبوي. وإن عقلاً يجيش بأنوار تسيل من هذا الأفق، يقول متى استوجب: "ليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم... وإن رأيت إيمان أمتنا في خير و سلام فإنني أرضى أن أحرق في لهيب جهنم"[2] ثم يخر منطوياً على نفسه بخشوع... أو يمد ذراعيه داعياً: "إلهي، كبرّ بدني حتى تملأ به جهنم، فلا يبقى فيها مكان لغيري!" فترتعش السموات بعويله وبكائه.

إن إنساننا يحتاج اليوم أمس الحاجة إلى أهل العمق الباكين من أجل آثام شعبهم، المقدمين مغفرة وعفو البشرية على مغفرة أنفسهم... والواقفين على "الأعراف" متلذذين بحظوظ أهل الجنة، فإن دخلوها فلا يجدون وسعة في التلذذ بحظوظهم الذاتية.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٨٥/١.

(٢) سيرة ذاتية لبديع الزمان النورسي، ص ٤٥٧.

openkandil.com

الشعور بالمسؤولية

الحركة والنهوض للحملة أهم عمق للصيرورة والتواجد. السكون اسم رديف للانحلال والموت. أما ارتباط الحركة بالمسؤولية فهو البُعد الإنساني الأول لها. ولا يمكن ادعاء الكمال في حركة أو نهوض لحملة من غير ضبطها بالمسؤولية.

أكثر الناس يسعون حثيثا إلى مقاصد وغايات مختلفة. ومن الهراء انتظار خير من سعي ولهاث بغير ضبطهما بالمسؤوليات. فإذا عمل طلاب المنافع، الدائرة أعينهم كالرحى طمعاً وحرصا، من غير توان وكلل، وخطب السياسيون في الأرجاء خطباً سحرية، وهَرّج الإعلام في برامج الأخبار والحوار والمنوعات الأخرى، وتنفست جهاتٌ هواءَ الابتذال أيام السنة كلها، وهرول رجال يكتسون أردية الدين نحو حق التمتع بلا فتور، واستيقظت سوق الأوراق والصرف على التوقعات وباتت مع التوقعات، وبذلت بعض دوائر الدولة الفرص لبعض الأيديولوجيات، وتطلع أهل الدراية من غير اهتمام في ذهول على كل ما يقع من عظائم الأمور، ومعنى ذلك أن من يسحق يغنم، ومن ينسحق يمضى في سبيله مبرراً الحال "بالانتخاب الطبيعي!" ومستسلماً وراضخاً لكل شيء باعتباره طبيعيا، فإن ما يلزم عمله يومئذٍ قد تعسّر وصعب، واشتد وثقل... حتى إذا نهض رجل فقال لأبطال(!) هذه الحركات والتكونات المشؤومة، أو للبؤساء المسحوقين بين أسنان هذه الدواليب المرعبة: قفوا... إلى أين أنتم ماضون؟

محضُ كِذب إن قيل قد يحيا مجتمعٌ والحسُ فيه منعدمُ
أروني أمة ماتت معنوياتُها، ثم هم بعدها سلِموا[1]

(١) ترجمة بيت لمحمد عاكف، ديوان "الصفحات"، ص ٢٧٢. (المترجم)

فإن لم يصفعوه و لم يبصقوا في وجهه، فسيعزروه بكلام غليظ أو يتخذوه هزواً. وربما قالوا: "كل شاة تناط برجليها" أو قالوا في عدم اهتمام: "الربان الماهر هو الذي ينقذ سفينته"[1] مستهزئين من شعوره بالمسؤولية. بل ربما نفثوا هذياناً ينُمّ عن إنسان منفلتٍ غير مبالٍ: "ما همني أن تعيش ألف سنة حيةٌ لا تلدغني!". فيخفق وجدانه النبيه مضطرباً. ومن يدري بما يصدم فكره النقي ومشاعره البريئة في هذا القفر من شؤون وأشجان!

ليس شيء من هذا مما يخطر على قلبٍ مؤمنٍ أو حساسٍ. ولكن لا يليق بشعورنا بالمسؤولية أن نقول: سفسطة وهذيان... ثم نمضي في سبيلنا... لا يليق بمسؤوليتنا ولا يأتلف معها، لأننا محاصرون -شعباً- بالعداوات وبالأعداء. وما دمنا في أسر هذا الحصار، فلا يمكن أن نحقق ذاتنا في الحس والفكر والاعتقاد والفن والتصرف الحر، وأن نحمي كرامتنا الإسلامية وعفتنا "الملّيّة"، وننقذ سفينتنا ونوصلها إلى بر الأمان، ونبني عالمنا الخاص ونحيا كما نريد، ونكون ورثة الأرض ونصل إلى الله. فينبغي أن نفتح عيوننا فنرى الحقيقة، ونعمل ببصيرتنا فنصون خواصنا المنتقلة إلينا من أمس إلى اليوم، ونطرد ما يمضغ وجودنا وشخصيتنا من دواخلنا. وإن لم نفعل، فسوف نرى يوماً نعجز فيه عن الحفاظ حتى على حالنا الحاضر.

كان الجهل والفقر والتفرق والتعصب وما يشبه ذلك، هم أعداؤنا في زمن ماض. واليوم زيد عليهم الخداع والتسلط والسفاهة والخلاعة واللامبالاة وضياع الهوية. وليعذرني هذه المرة الذين يحملون في جنباتهم قلق النـــزاهة الدينية والصفوة الفكرية والحماسة "الملّيّة"، إذ أقول بأن أجيال الشباب وقسما من أنقياء الســـريرة من الشيب يضَلَّلون منذ مدة طويلة بالحماس البريء النقي، ويعيشون غـــدر وعذاب الشخصية الصدوق- المنخدعة، ويُغرَّرون بأيديولوجيات منحرفة ما فيها إلا الكلمات المنمقة.

(١) المثل الأول يقال للنهي عن التدخل في شؤون الآخرين أو مسؤولية كل إنسان عن عمله بنفسه. والمثـــل الثاني لمن ينصرف إلى النجاة بذاته غير مبال بغيره. (المترجم)

ومهما انحصرت الظاهرة في شرائح معينة من الشعب، فإن هذا الانحراف الفكري والتحول والانـــزلاق في الشخصية يعني احتلال هذا الوطن المبارك تارة أخرى. احتلالٌ يســـمّ محمد الفاتح، ويطعن مراد خداوندیکار في أحشائه بخنجر، ويقتل يلدرم بايزيد همّاً، ويقهر ياووز سليم بكفّ الأسد.(١) احتلال فاضح يقتل روح "الملّة" التي خرجت ظافرة بالنصر من كفاح الاستقلال، لتذبح بسيئات العصر وغفلة المثقفين وإهمال الجمهور.

ونحن حملنا على عاتقنا مسؤولية بث روح جديدة في دنيانا، مشبعة بالإيمان وحب الإنسان والحرية، وتجهيز البيئة لترسيخ الجذور المعنوية لشجرة مباركة تنمو وتزدهر أفنانها بهذه المعطيات، وتزهو حقولاً جديدة بامتداد تلك الجذور. ولا شك أن إنجاز ما تمليه هذه المسؤولية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأبطال يصونون مصير الوطن ويحمون تاريخ إنساننا ودينه وأعرافه وتقاليده ومقدســـاته كلها... أبطالٍ طافحين بحب العلم، مُنْشَدّين إلى الإعمار والإنشاء، متدينين أخلص من الخُلَّص، محبين للشعب، ومرابطين أبداً على أداء واجباتهم بشعور المســـؤولية. فبهؤلاء وبجهودهم ستهيمن أفكارنا، ومحصلة هذه المفاهيم والأفكار، على حيـــاة شعبنا... ويعلو في كل إنسان حس نذر النفس لخدمة المجتمع، وينتعش من جديد مفهوم تقاسم الواجبات والتعاون المتبادل، وتبرز كرّة أخرى خصلة ظهور الشيء الواحد بأوجهه الكثيرة في علاقة رب العمل بالعامل، وصاحب الأرض بالزارع، والموظف برجل الشارع، وصاحب البيت بالمستأجر، والفنان بمحب الفن، والموكل بالوكيل، والمعلم بالطالب، ويتحقق كل ما كنـــا ننتظر منذ عصور. نحن نعيش في زمن نسبك فيه رؤانا في أفكار مثالية، ونؤمن أن مسؤولي العصر سيحققونها بتوقيت جيد حين تَأزف ساعتها.

---

(١) إشارة إلى دس السم لمحمد الفاتح، وطعن الصربي الغادر للسلطان مراد بخنجر في ميدان المعركة بعد نيـــل الأمان، وموت السلطان بايزيد هماً بعد وقوعه في أسر تيمورلنك وإذلاله، ووفاة ياووز سليم بورَمَ سرطاني متقيح في كتفه يسمى "شيربنجه"، والكلمة فارسية معناها "كف الأسد". (المترجم)

هذا هو أُس رؤيانا وخيالنا منذ عصور. والشعور بالمسؤولية وأخلاق المسؤولية هو أول وسيلة لتحقيق رؤيانا وخيالنا. ولما كان السكون والجمود موتاً وانحلالاً، واللامسؤولية في الحركة فوضى ولغطاً، فلا مفر من ضبط تصرفاتنا بالمسؤولية. فينبغي شد كل جهد لنا بالمسؤولية. طريقنا طريق الحق، وقضيتنا حمل الحق، وغايتنا تحري رضاء الله في كل رفّة عين. والأصل أن هذه صَدَفة كينونة الإنسان وحكمة وجود الإرادة. نحن نحسب أنفسنا مضطرين إلى التحري عن غاية الحياة في حياتنـــا، والتوصل إلى العشق في أرواحنا، والوعي بشعور المسؤولية في وجداننا، وإرشاد المستيقظين على منبع نظام أساسه وأصوله الإيمان، ومصدر قوته العشق، ونوره العلم والفن والأخلاق والحكمة... فنحتسب أنفسنا عبيداً لهذه الرسالة عبودية لا انعتاق منها. وستكون بداية لنهضة عالمية ثانية، هذه الجهود التي نرجو انتشارها وتطورها في استقامة وروحانية جميع الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين منذ البداية إلى اليوم.

لقد كان لكل عصر كرامة. فولدت الإنسانية من جديـــد بالإسلام في القرن السادس الميلادي، وعاد كثير من أقوام التـــرك إلى الحياة كرة أخرى بالإسلام في القرن العاشر الميلادي، وانشقت بالاستحالة شرنقة عن فراشة في "ســـوكود"[1] في القرن الرابع عشر الميلادي. وأظن أن كرامة القرن الحادي والعشرين ستظهر بملء شعبنا والشعوب المرتبطة به مكانه اللائق في الموازنات الدولية. وسيدور هذا التكون الجديد الذي يغير وجهة تاريخ العالم ومسيرته، في أفلاك الروح والأخلاق والعشق والفضيلة. نعم، نؤمن أننا بهذا الجهاد المعنوي الذي يمكن تسميته بكفاح العلم والأخلاق والحق والعدل أيضاً، سنلم شعث أشلاء "أمتنا" المباركة الممزعة البئيسة والمشردة في أرجاء الأرض المختلفة، لتجتمع الأجيال التي ظلت بلا راعٍ ولا غاية حتى اليوم في ظل الفكر، فتعيش "الانبعاث بعد الموت" من جديد في نشوة الوصل بـــ "لواء الحمد".

---

(١) إشارة إلى انبثاق براعم الدولة العثمانية في قصبة "سوكود"، وهي من أنحاء الأناضول التركيـــة حاليـــاً، والكلمة نفسها اسم لشجرة فالجملة تتزين بحُسن الجناس. (المترجم)

من الفوضى إلى النظام – ١

منذ عصور والناظر إلى مجتمعنا يرى أنقاضاً وأنكاثا من حيث الأخلاق والفضيلة والعلم والفكر. فما زال المجتمع يبحث عن نظام وفكر بديل في التربية والفن والأخلاق. والصحيح هو أننا بحاجة إلى إرادات فولاذية وأدمغة أصيلة تحتضن الوجود بأعماقه جميعاً، والإنسان برحابه الدنيوية والأخروية، وتفسرهما، بل وتتدخل في الأشياء بعنوان خلافة الله في الأرض.

نـــزعت حركات التغير والتحول الأخيرة في العالم، القناع عن كثير من الوجوه وأظهرتها على حقيقتها. كذلك، أزاحت الغشاوة عن عيوننا إلى حد ما... فتوضحت حقيقة كنه الأشخاص والأشياء شيئاً فشيئاً. فاستطعنا أن نرى ما حصل بصورة أوضح، ونستنبط من الحوادث نتائج أسلم وأمتن... وصرنا نفهم أن ما تعرض إلى شؤم الإبعاد والترك والنسيان في هذا البلد منذ قرنين، ليس الزي والفكر وفلسفة الحياة حصراً، بل ثقافتنا "الملّيّة" وحِسّنا التاريخي ونظامنا الأخلاقي وفهمنا للفضيلة وتصورنا الفني وجذورنا المعنوية أيضاً قد تعرضت –وربما مع ضرر أعظم– إلى التآكل. فاهتزت أواصرنـــا الروحية وجفّت منابع فضيلتنا، وتعمقت الهوة بين حاضرنا وماضينا.

نعم، شهد عالمنا المبارك أطواراً عجيبة، فيها سكت المثقفون، وصُكّت أفواه الفكر، وظاهَرَ أصحابُ القـــوة والقدرة الضلالةَ والانفلات عن الأصـــول، وتعارفت الأجيال مع الأحاسيس الهامدة والآيسة والمظلمة في همهمات الحيرة وكأنها جنائز.

وكم عينٍ تنفست دموعاً بلا حول ولا حيلة في زمن أحمر يحاصره اليأس أدخنةً سوداءً من كل جهة، وصرخت مشاعر القلوب بأحاديث نَفْسٍ في

وجه أناس لا يعرفون ما الخجل، وقالت في أنينها: "ما الرجاء من حيارى فتحوا أشرعتهم لريح الإلحاد، ومن بُلّه يصفقون لكل واحد ولكل شيء، ومن منكوبي الوجدان المعتادين على طأطأة رؤوسهم أمام القوة، ومن شرف وعزة ملوثة؟ لكن ما اهتز تزعزع، وما انهدم خرب، وما ذهب انقطع، و لم يحل محله شيء جديد! نعم، قد أزيل ما تحطم و لم يقم مقامه شيء، فانقلب المجتمع رأساً على عقب باعتبار قيمه. ذلك بشهادة القلق وضياع الأمان المحسوس –في عصرنا الحاضر خاصة– في أغوار قلوبنا جميعاً، حتى العقلانيين الواقعيين(!) الذين لا هم لهم إلا تحقيق مآربهم اليومية.

أرجوكم أن تتفكروا... بمَ ننجو من الفقر الأخلاقي والمعضلات المتشابكة يوماً بعد يوم حتى جعلت الحياة حملاً ثقيلاً وحيرة لا تطاق؟ وكيف نتخلص من نوبات أمراضنا الفردية والعائلية والاجتماعية؟ وكيف نسير إلى المستقبل في ثقة واطمئنان؟

هل نستورد أفكاراً حالمة وخيالية من هنا وهنالك؟ أم بعقلية العصر التي نحاول أن نبني عليها كل شيء؟ كلا... كلا! لن يحمل هذا الحملَ الأثقل من جبل "قاف" منطقٌ كهذا المنطق وأفكارٌ مجهولة النسب كهذه!

منذ سنين مديدة لم تتجاوز حملات التجديد التغييرَ في الصورة. فقصرت عن إدراك مقاصد الآمال والخيال، وعن أدنى غاياتها المعلنة. وظن الذين قبضوا على الزمام في القمم أن الإمساك بالفرشاة وتلطيخ جروح البدن الاجتماعي و"الملي" بالأصباغ هو المعرفة والحنكة، بل ظنوه ثورة وانقلابا... وغاب عنهم كلياً النزف الباطن، ومضاعفات النزف الباطن، في الأعضاء الحيوية للمجتمع، وفي شرايين روحه. هذا ما حصل في تاريخنا القريب، باستثناء المظهر والتمثيل الخاص لأبطال كفاح الاستقلال المستمد قوته من الإيمان والأمل والعزم. هذا، مع إجهاضنا حتى للقوة والصفوة

المكنونة في هذه الحملة المباركة باعتبار منطلقاتها. فعسير أن تتحقق وحدة كالتي تحققت أو نهضة وحيوية كالتي حصلت.

فالحاصل أن مجاميع الناس التي انفصلت عن بعضها وتوسعت الهوة بينها في السنين الأخيرة، إن لم تقع في فقر مدقع في حياتها الفكرية وروحها وجوهرها، فقد وقعت في الاغتراب عن بعضها والاحتراب فيما بينها كالذئاب. فالبياض عند بعضهم سواد عند غيرهم، وما يدعو إليه بعضهم يخالفه غيرهم، والبديل المقترح من بعضهم داعية هزيمة عند غيرهم، وصلابة بعضهم تعصب عند غيرهم. ومع هذه السلبيات، تخيل مدى هذا الاحتراب، أو قل عراك العميان، ولا قسطاس يرتضيه الجميع لمعرفة أيهم أدنى إلى الحق وأقرب.

ولذلك، نحن اليوم في أمس الحاجة إلى طريق يوصلنا إلى الحقيقة والفضيلة، ومنهج تفكير لا يخدعنا، وموازين لا تضلنا. والواقع أن الوجدان والقيم الأخلاقية مصادر نور تكفي لحل كثير من المعضلات. لكن في أيامنا هذه، الوجدان جريح والقيم الأخلاقية شتات. فهذان المحركان قد أجتُزّا من الجذور وجُففت ينابيعهما.

لا ترتقي الأخلاق بالعرفان ولا الوجدان
حسنُ الفضيلةِ من خشية الله في الإنسان
فهب أن الخوف من الله في القلوب قد غاب وانحسر
فلن تجد إذن للعرفان والوجدان ذرة من أثر[1]

وزد على ذلك هشاشة الإرادة وضمور المحاكمة العقلية ووحشية الأحاسيس البشرية وتعطشها للدم كالتنين، لتعلم هول الكابوس الذي نعيشه.

فمن الضرورة إذن أن نبدأ العمل بإعادة النظر في عناصر محاكمتنا الأساسية، وتمييز الخط الفكري المنطقي، وإيفاء حق الإرادة، وإعداد جيل

(١) ترجمة بيتين لمحمد عاكف، ديوان "الصفحات"، ص ٢٧١. (المترجم)

عزوم بل أجيال. فلنقر أولاً بمراعاة الأسباب، لأننا نعيش في عالم محاط بها. نحن نعيش في عالم الأســـباب. فإهمالها محض "جبرية"، وضلالة بالحاصل. وليست مراعاة الأسباب وحدها، بل العناية بالمناسبة بين السبب والنتيجة (قاعدة تناسب العلية) من أهم لوازم التكليف.

فإن لم نعين أسس الأفكار المضرة والتيارات المفسدة، بمشاعر مسؤولية جادة لنقاومها منذ اليوم، فسوف نرى في المستقبل أبعاداً مختلفة للبؤس الأخلاقي والنكبة الاجتماعية والانحرافات الأخرى.

وليس الحنيك من ينتبه إلى النكبة والبؤس بعد ما تظهر النتائج عيانا، بل من يجزم بما سيقع وبأي سبب وسياق من قبل الوقوع. ومن العسير الادعاء بأننا أبدينا فراسة كهذه في تاريخنا القريب. أما أن نـــزعم بأننا أوفينا حق الإرادة فكلاّ! بل إنساننا في هذه المدة المدلهمة ظلمةً يشك حتى في إرادته الذاتية وفكره وعزمه... بل ما يفتأ يبحث عن إرادات سامية ومدهشة لتدير شؤونه. والأدهى والأمَرّ توهين الشخصية وأسر العزائم في أصحاب المشاعر النقية والوجدان الطاهر بإيحاءات من قبل المفكر فلان، والعالم علان والدولة الفلانية! ثم بمرور الزمان، صرنا نحكّم فلاناً وعلاناً في تفكيرنا وسلوكنا، فأصابونا بأنـــواع من دوار الرأس وازورار المحاكمة وانحراف الملاحظة وانـــزلاق الشخصية. فأصيبت الأرواح المستسلمة تمام الاستسلام خاصة، بأعطاب رهيبة من المحال إصلاحها. وكان الأصل أن لا نؤمن أو نرضى بإرادةٍ ما حققنا فيها ولا محصّناها، ما عدا الإرادة الإلهية.

يقول ديكارت: "لا قيمة للفكر ما لم يتمتع بالحرية". أما كان ينبغي أن نفكر على الأقـــل مثل ديكارت لتخليص أرواحنـــا من نظم التفكير السكولاستيكية البالية والمتعفنة في معظم جوانبها. ولكن هيهات!

يجب على الأجيال المنورة آفاقها الدنيوية/الأخروية، التي ستعين معالم تكوّناتٍ يبدو أن لا فكاك من حدوثها في العالم في الســـنوات القادمة، أن

تعيد النظر في الأفكار والمعادلات والأنظمة، الواردة إلينا من الخارج أو المُشكّلة في الداخل، وتطهير المجتمع من "لوثيات" التغريب،[1] وشدّه بجذور معانيه الذاتية... وذلك حتى يستطيع الحفاظ على جوهره وشخصيته، ويتقدم إلى مستقبله على خطه الذاتي أثناء التعايش الحميم مع العالم... وحتى يطلع على التفاف الماضي بالحاضر إذ يتقدم، فلا يشيح بوجهه عن الماضي لأنه قديم، ولا يقبل على كل ما يظنه طرياً من غير بصيرة لأنه جديد. إن أبرز خصال جيل الضياء هذا، أن يحيط علماً بشؤون اليوم والغد، ويفهم أن ما ينبغي أن يعلمه ليس منحصراً بما نعرفه نحن، ويجهد في استيعاب الحقيقة بترشيحها من مصفاة العقل والمنطق والمحاكمة في دفء أنسام الإلهام، إلى جانب مكتشفات المختبر.

ومن المهم أن نعرف جيداً تأريخنا القريب، وأبطال التاريخ، لكي نحقق تطوراً وتغيراً كهذا. فنعرف الأسباب والشخصيات المؤثرة في تكوين تاريخنا الحاضر، ومَن أثار عشقَ وحماسَ التواجد والتكوّن مُجدَّداً في صدر هذه الملّة... ومَنْ لحّن نشيد الروح "الملّيّة"، ومِنْ أبناء الوطن أنشدها؟ فأظنّ أننا سندرك جيداً ما ينبغي أن نتخذه مبادئَ، ونستطيع أن نضع برامج واضحة للغد، بعدما أن نفهم ما ذكرناه فهما دقيقاً... ثم نسعد بالسير في درب الشجعان الذين يحتفظون في صدورهم بحيوية الفكر والقضية والعشق وأخلاق التسامح.

(١) المقصود مما تلطخ بالمجتمع من آثار الاغتراب عن الذات، وليس "التغريب" هنا منسوباً إلى الغرب حصراً. (المترجم)

من الفوضى إلى النظام – ٢

إن الانسجام بين الأشـــياء والحوادث جبري واضطراري، والنظام بين البشر إرادي، ومصدره الأعظم هو مخافة الله ومهابته. والنظام اسم جامع للأمان والاطمئنان والانسجام الاجتماعي ورجاء المستقبل الزاهر. فلا يُنتظر الأمان والانسجام من الفوضى، ولا المستقبل والعطاء من اختلاط الحابل بالنابل.

وقد يبدو لأول وهلة أن النظام أثر من آثار الإرادة البديهة والعقل المجرد. لكن عقلاً لم يَدْخُل في طاعة الروح، ولم يجتث جذورَ الالتفات إلى الشر، ولم يُعْلِ ميول الخير فيه إلى عنان السماء، كثيراً ما ينحرف إلى الفوضى.

النظام يســـود دائماً ومنذ خلق العالم فيما عـــدا الإنسان من الكائنات. الانسجام في حركة الذرات، والرونق في وجوه الزهور، والتآلف والتوازن بين الموجودات الحية وغير الحية، وغمزات النجوم في صفحة السماء الفائضة في قلوبنا شـــعراً وعواطف، والمعاني المنسوجة خمائل على الأغصان والأوراق والأزهار، وأنفاس الروح في الحياة... نظام فتان يتحكم في كل مكان وكل شيء.

نعم، إن تأمّلَ الوجدانُ لحظةً واحدة في كتاب الوجود فأبْصَر، لشهد في كل مكانٍ النظامَ والانسجام فوّاحاً، وغنىً في الجمال والمعاني مدهشاً. ولا تمس الحاجة إلى تحسس شديد الرهافة، فالقلب المشحون بشيء من المشاعر يحس كل لون وصورة وصوت ونَفَس شعراً ونغماً متلوناً بألوان اللانهاية، في الرعد المهيب كما في تغريد الطيور وزقزقة العصافير، وفي وجوه الأزهار الفاتنة كما في أضواء صفحة السماء الساحرة. ومن يدري ما يشهده الذين يتقدمون خطوة إلى الأمام في فيزياء الوجود وكيميائه وحياتياته وفضائياته.

فكل شيء يقول: النظام... الانسجام... وكل شيء ينادي بالمعاني الرحيبة في روح الوجود. كل الأشياء: من همهمات البحر إلى خوف ضربات القفار الموحشة على أوتار أحاسيسنا، ومن السكون الوقور للتلال إلى شواهق ذرى الجبال، ومن دوي البحار الدائم إلى نعومة خمائل اللانهاية المرفرفة في أعماق السماء.

فكيف طرأ اللانظام -الذي نسميه الفوضى- على الأرض، والنظام ينبجس في كل مكان وفي كل شيء؟ لقد عرفت الأرض الفوضى، ومن خلفها اللاأخلاقية، مع بني البشر الذين لم يسلموا طوع عقولهم لله، ولم يكبحوا جماح إراداتهم نحو الشر، ولم يغنوا فيض مشاعرهم نحو الخير. الإنسان مخلوقٌ، أنواعُ رغباتِه مفتوحة، وثغراتُه واسعة لا تقارن بما في حي آخر. فمن المعلوم أن في كل ثغرة من ثغراته، كالحرص والحقد والكره والغضب والعنف والشهوة، بُعدٌ موجي مختلف القوة من نزعات التخريب وميول العبث ودوامات الفوضى. ولا مفر من سقوطه في براثن نتائج غير مرضية ما لم يضبط ويُقيّد رغباته السيئة هذه بتربية حسنة، فيسمو بأحاسيسه الإنسانية، ويستجيب للعقد الاجتماعي الضمني المكنون في وجدانه بخواطر الرغبة والطلب، والفرح والحزن، والحق والحرية، مع احتساب وجود الآخرين.

ولا بد أن تكون التربية التي تسمو به من درجة إنسان "بالقوة"[1] إلى إنسان "بالفعل"، ذات أفقٍ لاهوتي ومحورٍ وهبي. فينبغي أن تغذى ثقافتنا الذاتية بورود حدائقنا وعصارات جذور معاننا وأرواحنا، لكيلا ترفض من قِبَل الوجدان الاجتماعي العام والشعور التاريخي... وينبغي أن يتحقق العقد الاجتماعي في أرفع درجة حسب ظروف العصر في إطار ملاحظات الحقوق

(١) المقصود من القوة هنا حال الإمكان والكمون، فإذا تحرك من الإمكان أو الكمون أو المكنون إلى الحدوث أو الظهور فقد تحول من القوة إلى الفعل. (المترجم)

والحريات، لكيلا تفقد قوتها وشدتها، وتوقيرها وقيمتها، في شِباك التعارض والتساقط الذي تعيشه مختلف القطاعات الاجتماعية، أو في الدائرة الفاسدة للتحييد الناجم من التناقض. وليس المقصود من العقد هنا سنداً إجتماعيا مختوماً بتواقيع الرضاء المتقابل في أسفله. بل المقصود تعاقد الوجدان المتيقظ إزاء القيم الإنسانية على عقد مرتبط ومحدّد باحترام مفاهيم الحق والحرية وحب الحقيقة.

وإن البناء القلبي والرحابة الروحية للفرد، وتحول إيمانه ومعتقداته إلى جزء من طبيعته، يُعيّن حدود هذا العقد وإطاره. وبهذا الوجـــه يكون العقد الوجداني معادلاً لمستواه الإنساني. والمجتمع الذي أفراده قد تجاوزوا حدود جسمانيتهم وعاشوا حياتهم القلبية والروحية، هو مجتمع أنموذج للنظام. هذا النظام في عالم الإنسان يتصف بالديمومة والأمل في المستقبل، لأنه بُعدٌ من الانسجام الكوني المحيط بالوجود كله.

الدولة في عالمنا كربّان سفينة مهيمن على القيادة في أهم المراكز الحيوية للكل المتكون من أجزاء توحي بهذه الأخلاق والفضائل. وواجب قبطان كهذا هو أن يستفيد ويقيّم العناصر التي تحت تصرفه بأحسن وجه، وأن يوصلهم إلى الهدف من غير اصطدام بدواليب الحوادث، وذلك بالتأليف بينهم وبين نظام الكائنات. ولا يتصور مجتمع سليم ودولة راقية من أفراد حُرموا الفضيلة وجموع تحت إغواء اللاأخلاقية. وكذلك، الأمل في المستقبل من ركام الفوضويين المعتلين بأمراض عديدة من كل جانب ليس إلا انخداعاً. ومهما كانت الأسماء والأشكال، فإن الأمل في الحصول على شيء باسم الإدارة والأمن في خضم هذا الركام البشري المعزول عن السلاح أمام حظه الأسود، لا يزيد على أن يكون محض خيال. وأما انتظار الدولة والسلطة منه فهو سلوان كاذب لا يقوم على سند. فلا يمكن أن تتحقق الدولة والسلطة إلا بالقصد إلى فكر سامٍ يمنحهما الحياة في المجتمع، ويغذيهما، وببرمجة كل شيء

بموجبه والالتفاف كخيوط المغزل حوله. وتلخيصاً، احتساب "الواحد الأحد" في كل حملة، وفي كل جهد.

نعم، ينبغي أن يجهز ويبرمج كل فرد وكل وحدة حياتية حسب مقصود رفع الأمة إلى الذرى... حتى لا تفسد الحسابات والمنافع الضئيلة المنعقدة على الأشخاص وئامَ الانسجام العام، وحتى لا تتموج الجموع البشرية المتنوعة رغماً عن ذاتها كأمواج البحر فترتطم ببعضها وتتبعثر. ولقد تحددت هذه الغاية المأمولة بصورة رائعة في زمن سابق بفضل هيمنة روح الإسلام على الحياة. فتَحقَّقَ المسيرُ إلى الذرى وكأنه فعل طبيعي في الحياة، وذلك بجعل الأفراد والوحدات المكونة للمجتمع أركاناً ومستنداتٍ للنظام.

إن إعادة النظر في تصوراتنا عن النظام، وتجديد الإيمان بأن إرادتنا هي التي ستحمل الانسجام الإلهي في الوجود إلى عالم الإنسانية، وسحب التوازن الدولي إلى هذا الفَلَك، هو أَجَلّ هدية تقدمها الأجيال المعاصرة إلى عوالم المستقبل الآتي. وأظن أن لدينا ما يكفينا لهذه الرسالة المهمة، إذا ما محّصنا إرادتنا كرّة أخرى، وفحصنا مقامنا عند الله، وعيَّنّا غاياتنا "الملّيّة"، ورصَّنّا استراتيجيات وسياسات مكينة، وشغَّلْنا حركيات موفورة في أيدينا.